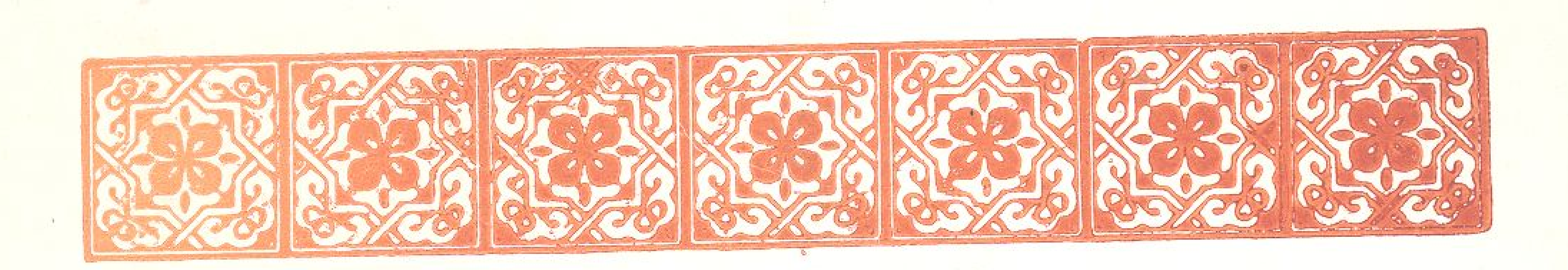
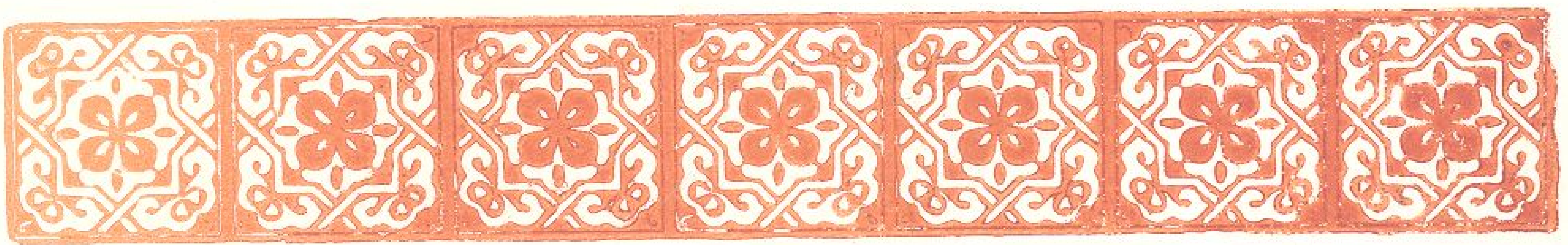
الدكتور محمد البهي

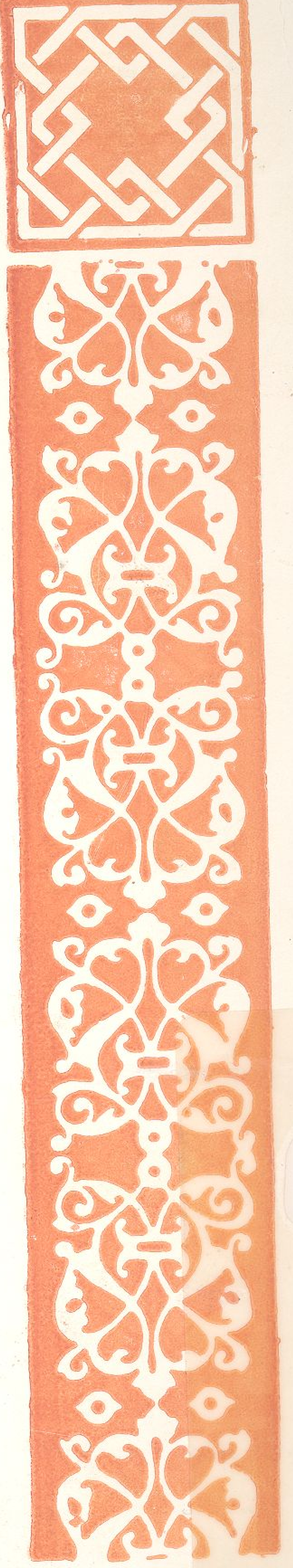


عقبات فى طريق الاسلام

فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة









يطلب من : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٩٣٧٤٧٠

الدكتور محمد البهى

عقبات فى طريق الاسلام

فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة

الناشر: مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت: ٩٣٢٤٧٠

الطبعة الثانيـــة

شوال سنة ١٤٠١ هـ ــ اغسطس سنة ١٩٨١ م

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامى ـ ميدان لاظوغلى
القاهرة ـ تليفون ٣٠٥٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

عقبات فى طريق الاسلام

فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة (١)

يرتفع اليوم صوت قوى يطالب بتطبيق الاسلام كنظام حكم سياسى ، وكنظام اقتصادى ، واجتماعى ، وكنظام للسلوك والترابط فى العلاقات بين الأفراد . وكان لهذا الصوت صداه فى بعض هذه المجتمعات فى تقنين الحدود على الجرائم الاجتماعية والاقتصادية ، وفى السعى بعد ذلك الى تقنين الجوانب الأخرى من الشريعة الاسلامية .

ولكن السؤال الذى يتردد الآن هل يمكن أن يطبق الاسلام فى المجتمعات الاسلامية اليوم او غدا فى القريب ؟ . ومعنى هذا السؤال : أليست هنا وهناك عقبات قائمة تحول لفترة طويلة على الأقل دون تطبيقه ، ان أخذ العمل على تطبيقه فى جدية ، وسعت اليه حركة مستمرة لا تكون تعبيرا عن حماس وقتى يفتر أو يتلاشى أن قوبل بتحد ، او اصطدم بعقبة من العقبات ؟ .

من يدرس عن قرب تركيب هذه المجتمعات الاسلامية فى الوقت الحاضر يلاحظ أن هذه المجتمعات فيها خليط من الاتجاهات ، وفيها خليط من المجموعات المتباينة فى تحديد الغاية من الوجود الاسلامى : فيها الميل الى الروحية الانسانية والقيم الانسانية .. وفيها الميل الى الأنانية والمادية .. وفيها الانتماء الى الوطن والقومية .. وفيها الانتماء الى العالمية .. وفيها الانتماء الى قوة من القوى الدولية الخارجية . والشباب فى هذه المجتمعات مثل لهذا الخلط والتباين

---

(١) بحث لمؤتمر علماء المسلمين بالقاهرة .

فى تركيبها . ومن شأن هذا الخلط أن لا يكون الطريق سهلا فى قبول الاسلام فى التطبيق فيها :

والعوامل التى تعد عقبات فى طريق الاسلام فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة : عديدة ، ومختلفة . من بين هذه العوامل :

تقسيم الأمة الاسلامية

تفتيت الأمة الاسلامية الى دول ، ودويلات . فالبلاد الاسلامية فى آسيا وافريقيا قصدت من الاستعمار الأوروبى الصليبى منذ قرون عديدة واستوطن فيها هذا الاستعمار ، وعمل على اضعاف أسباب القوة فيها . وهى تلك الأسباب التى ترجع الى ما يوحد بينها . وذلك هو الاسلام . فأحيا بجانب الاسلام بعض العوامل المحلية كالشعوبية . والطائفية واللغات الأخرى غير العربية . كما أحيا بعض عادات البوذية فى الشرق الآسيوى وبعض عادات البربر فى المغرب العربى . وأحيا كذلك الفرعونية فى مصر والآشورية فى العراق . وعمق الخلاف بين السنة والشيعة . وبعث الدرزية ، والنصيرية ، والعلوية فى الشام . كما بعث القبلية العربية فى شبه الجزيرة العربية . ثم بعد فترة من البعث ، والاحياء لهذه العوامل المفرقة : قسم أرض المسلمين على أساس منها الى مجموعات ومجتمعات . ثم بعد ما أعلن استقلالها بعد الحرب العالمية الأولى ، وكذلك بعد الحرب العالمية الثانية : حولها هذا الاستعمار الى دول ، ودويلات ، وامارات ، وسلطانات ، وخلف فيها مشاكل . فى مقدمتها مشاكل الحدود بينها وبين جيرانها ، ومشاكل الأقليات فى داخلها ، أو مشاكل الطائفية بينها .

ولو سئل الاسلام عن رأيه فى هذه المشاكل والخصومات لكان جوابه : أنه لا يرى فيها مشكلة ولاخصومة . لأن الأرض فيها للمسلمين جميعا . وبين المسلم والمسلم أخوة الايمان بالله وحده . وليست هناك حدود بين المسلم والمسلم الا حدود الحرمات فى النفس ،

والمال . والمرض . ويوم نقل الاسلام الترابط بين الذين أسلموا على أساس من كتاب الله ، اذ يقول جل شـأنه : «**واعتصموا بحبل الله جميعـا** (أى بهدايتـه) **ولا تفرقوا** .. (الغى ان يكون للقبليـة والشعوبية أثر فى الترابط أو فى التخاصم . لأن الترابط أو التخاصم على أساس منها يؤدى حتما الى التهالك) **واذكروا نعمـة الله عليكم** (أى الآن بعد الترابط على أساس من هـداية الله) **اذ كنتم اعداء** (عندما كان الترابط بينكم على أساس من القبيلية) **فالف بين قلوبكم** (وليس بين ابدانكم ولا تحت اقـدامكم من ارض وتراب **فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها**)) (١) . ويوم أن نصح القرآن الكريم المؤمنين بأن يسووا بين بعضهم بعضا فى الاعتبار البشرى وفى نظرة كل الى الآخر كانسان. فيقول : ((**يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ، ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولاتلمزوا انفسـكم ، ولا تنابزوا بالألقاب**)) (٢) . انما ينصحهم ليدفعوا عن انفسهم تلك العوامل التى اعتاد الماديون أن يتخذوا منهـا أسبابا للطبقية فى المجتمع ، وهى عوامل الشرف والجاه ، والمال ، والقوة فى العصبية . والطبقية هى شر ما يفتت المجتمع أو الأمة . ويوم أن جعل القرآن مقياس التفاضل بين الناس عند الله انما هو المدى فى السلوك الانسـانى الكريم ، فى قول الله تعالى : ((**يا ايهـا الناس آنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم**)) (٣) . لم يتخذ من غير المستوى الانسانى مما يلحق بالانسان ويعرض له ، أساسا لذلك التفاضل .

ورأى الاسلام اذن فى تقييم الوجود الانسانى هو بقيمة المستوى الانسانى وحده ، دون التفات الى عصبية سوى عصبية الأيمان بالله .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .
(٢) الحجرات : ١١ .
(٣) الحجرات : ١٣ .

وتحول الأمة الاسلامية بفعل الاستعمار ، الى مجتمعات ، وتحول الروابط فيها الى روابط الحدود الجغرافية ، والدول ، والدويلات ، والامارات ، والسلطنات ، أوجد فوارق أخرى بين المسلمين على غير أساس من الايمان بالله ، وأجاز أن يكون هناك تقاتل بين مجتمع وآخر فى الأمة الاسلامية . وأجاز أن تكون هناك عداوة وخصومة بين مجتمع وآخر فيها . وأجاز أن تكون هناك سخرية أو لمز أو تنابز بالألقاب من مجتمع لمجتمع آخر فيها ، أيضا .

ومعنى ذلك لم يعد للايمان بالله أثر عملى فى ترابط المسلمين بعضهم ببعض . فكيف يمكن تطبيق الاسلام فى هذه المجتمعات الاسلامية المعاصرة ؟ . كيف يمكن مثلا أن تطبق عبادة الزكاة ــ وهى عبادة التكافل فى الأمة الاسلامية وتنقل من مجتمع غنى الى مجتمع فقير صاحب حاجة قريب منه فى الجوار أو بعيد عنه ؟ . كيف تطبق زكاة الركاز على المعادن المدفونة تحت الأرض من : بترول .. وفحم . ونحاس .. وحديد .. وذهب .. وفضة ، وهى بنسبة عشرين فى المائة وتؤخذ من أغنياء المسلمين الى فقرائهم فى الأمة الاسلامية ، وعلى الأرض الاسلامية أينما وجدوا ؟ لو طبقت زكاة الركاز وحدها فى الأمة الاسلامية لقضينا تقريبا على مشكلة الفقر فيها .

كيف يمكن مع الحدود الجغرافية القائمة ، ومع الاستقلال السياسى لهذه المجتمعات الاسلامية : أن توزع كثافة السكان على أرض الأمة الاسلامية ، حيث العمل متوفر فيها ككل وحيث الحاجة الى العامل قائمة ؟ . وتلك سنة الله فى بنى الانسان عامة : بينهم صاحب المال ليؤجر غيره على العمل ، والعامل الذى يملك الطاقة على العمل يباشره بالأجر عند غيره : **((نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم**

بعضا سخريا » (١) . ولو وزعت كثافة السكان على رقعة المسلمين ما كانت هناك مشكلة اسمها : « الانفجار السكانى » فى مجتمع من مجتمعاتها ، والاسلام يعنى بعلاج فقر الفقير وايوائه وايجاد عمل له ، قبل اقامة حد السرقة عليه .

***

احياء القوميات فى الأمة الاسلامية

ومن هذه العقبات أيضا : تقسيم الأمة الاسلامية مرة أخرى ، عن طريق القومية ، أو الشعوب . فهناك القوميـة العربية .. والقومية الفارسية .. والقومية الطورانية .. والقومية البربرية .. وبعثت هذه القوميات ، وأبرزت فى مواجهة بعضها بعضا بعد الغاء الخلافة الاسلامية فى تركيا ، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وقامت جامعة الدول العربية لا لتحافظ فقط على استقلال الدول والدويلات فى المنطقة العربية ازاء بعضها بعضا . ولكن مع ذلك لترسم سياسة للدول العربيـة قد تتجاهل فيهـا مصـالح البلاد الاسلامية ، كما قد تتنازل فيها كذلك عن طلب مساعدة هذه البلاد التى يمكن أن تقدمها للدول العربية .. فى السياسة الدولية . وأوضح مثل لذلك : مسألة « القدس » التى اعتبرتها سياسة القوميـة العربية ، مسألة عربية ، متجاهلة المسجد الأقصى ومنزلتـه فى الاسلام . فهو المسجد الثالث الذى أباح الرسول عليه السلام شد الرحال اليه ، لأنه تعلقت به ريادة القرآن للرسالات السـماوية السابقة عليه . فالاسراء بالرسول محمد عليه صلوات الله الى المسجد الأقصى ، وامامته للرسل السابقين فى الصلاة هناك — كما يروى فى حديث صحيح عن عائشة رضى الله عنها — ايذان من الله جل جلاله ، واعلام من قبله : بأن القرآن يتقدم رسالات الله على الأرض . فى ابلاغ الناس الحق من المولى سبحانه : **« ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون »** (٢) .

---

(١) الزخرف : ٣٢ .   (٢) النمل : ٧٦ .

كما تقدم رسوله الكريم جميع الأنبيساء والرسل السابقين الى امامتهم فى المسجد الأقصى .

وعن تاثير معنى القومية العربية فى سياسة الدول العربية ازاء بقية الدول الاسلامية الأخرى ، أتاحت الفرصة لبعض هذه الدول(١) . أن تعترف باسرائيل ، وتصبح هذه الدول بذلك فى شقاق سياسى علنى مع الدول العربية .

ثم من جانب آخر من يقرأ كتاب « الفتنة الكبرى » (٢) . يعرف مدى اعتزاز القومية الفارسية بما كتبه المؤلف العربى للكتاب عن حضارة الفرس من جانب ، وهمجية العرب فى مقابل هذه الحضارة ، ودور الاسلام الذى لم يستطع فى رأيه أن يزيل هذه الفجوة بين أصحاب هاتين القوميتين ، بما له من تعاليم انسانية ، وبقى على هامش الحياة للفريقين .

وهكذا ابراز القومية أو الشعوبية داخل الأمة الاسلامية وضع هذه الأمة فى خصومة غير رسمية وغير علنية بين بعضها بعضا ، مما من شأنه أن يحول دون تطبيق الاسلام فى واقع المجتمعات الاسلامية المعاصرة . فالاسلام يطالب بالأخوة الاسلامية وبالتضامن بين المؤمنين ، وكشرط تمهيدى للأخوة الاسلامية : ابتعاد كل طرف عن سوء الظن بالآخر ، فضلا عن تجنب الوشاية ، والاستعلاء والتحيز الى عدو المؤمنين جميعا : ((**يا أيهـا الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا ، فكرهتموه**)) (٣) .

وعن تجاهل السياسة القومية لمصلحة المسلمين جميعا كان الموقف المعروف لبعض البلاد العربية من مشكلات ككشمير ، وقبرص ، وارتيريا ، والفلبين . وكذلك الموقف المعروف لبعض

---

(١) كايران ، وتركيا . (٢) لطه حسين .

(٣) الحجرات : ١٢ .

البلاد غير العربية فى الأمة الاسلامية ، من مشكلة فلسطين والصهيونية العالمية .

***

العلمانية فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة

يضاف الى هذه العقبة ، وتلك فى تطبيق الاسلام : عقبة ثالثة، هى عقبة « العلمانية » . أو عقبة الفصل بين الدين والدولة فى ممارسة شئون الحكم فى المجتمعات الاسلامية .

والعلمانية فى المجتمعات الغربية ضرورة لجأت اليها هذه المجتمعات لوقف الخصومة بين سلطتين قائمتين بالفعل هناك فى المجتمع الواحد . وهى سلطة الدولة أو السلطة الزمنية أو السياسية من جانب ، وسلطة الكنيسة ، أو سلطة الحكومة الالهية من جانب آخر . فالكنيسة ليست هيئة دينية معزولة عن المجتمع . وانما هى حكومة معصومة عن الخطأ، تباشر سلطتها على افراد المجتمع المسيحى كما تباشر هذه السلطة : الدولة السياسية . واتفاق الفصل بين الدين والدولة هو اتفاق على مناطق النفوذ والسلطة داخل المجتمع بين الهيئتين .

والمجتمعات الاسلامية المعاصرة ، تأثرا منها بالمجتمعات الغربية التى كان لها النفوذ الاستعمارى فيها فى الماضى ، ولم يزل لها نفوذه السياسى أو الثقافى وتختلف درجاته حتى الآن : تباشر من نظم الحكم فى عهود استقلالها ما كانت تباشره فيها السلطات الاستعمارية من نظام . فالنظام الرأسمالى هو السائد فيها . وبجانبه أخيرا بعد الحرب العالمية الثانية وجد النظام الآخر الاشتراكى الماركسى فى بعض البلاد الاسلامية . وكلا النظامين قائم على « العلمانية » أو على الفصل بين الدين والدولة . أى الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الدولة . والفرق بين النظامين فى الفصل بين الدين والدولة هو الفرق فى موقف أى منهما من الدين . فبينما النظام الرأسمالى بجانب حرصه على عزل الدين عن مناطق نفوذ الدولة ، فانه لا يعادى الكنيسة ، كما لا يعادى المسيحية ، اذا

بالنظام الماركسى يعلن العداء والتحدى سافرا للدين ، ويضع بديلا عنه فى المجتمع الماركسى ما يسمى « بالالحاد العلمى » .

وتطبيق العلمانية فى المجتمعات الغربية يقلل فقط من النفوذ الكنسى فى المجتمع الغربى ، ويحول دون أن يستعيد قوته التى كانت له فى القرون الوسطى . أى على نحو ما كان عليه الوضع فى عهد حكومة « الآباء » . ولكنه فى الوقت نفسه لا يقلل من هيبة الكنيسة ، كما لا يتدخل فى منطقة النفوذ الكنسى وهى الأسرة ؛ ولا يحول دون أن يكون للكنيسة كذلك حزب سياسى يمارس مصالح الكنيسة بين الأحزاب السياسية المدنية القائمة . وهو الحزب الديمقراطى المسيحى فى أى من المجتمعات الرأسمالية .

ولكن تطبيق العلمانية فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة يسىء الى الاسلام ، ويدفع على مر السنين الى اضعافه ، وربما الى درجة التلاشى . لأنه يجعل الدولة تنفرد بالنفوذ فى جميع الجوانب فى المجتمع . بل ويتيح لها الفرصة فى التدخل فى تعديل المبادىء الأساسية فى الاسلام التى لا تقبل التعديل ، كتعديل مبدأ الميراث بين الذكر والأنثى ، والغاء رخصة تعدد الزوجات ، وتقييد حق الرجل فى الطلاق بما يجعل وضع المرأة فى الأسرة المسلمة يكاد يكون مساوقا لوضعها فى الأسرة الكاثوليكية .

والأكثر خطرا على الاسلام عند تطبيق العلمانية فى المجتمعات الاسلامية : أن يصبح الذين يتحدثون عن الاسلام ، وباسم الاسلام ، والرأى الاسلامى من الذين يشغلون وظائف حكومية ومن أولئكم الذين تختارهم الدولة وتخضعهم للنظام السياسى القائم .

فاذا أضيف الى هذا الخطر وجود سلطة لأقلية دينية غير اسلامية فى المجتمع الاسلامى المعاصر تتمتع بميزة الاستقلال القائم على الفصل بين الدين والدولة فى المجتمع الغربى ، عندئذ يصبح تطبيق الاسلام فى هذا المجتمع شعارا اكثر منه أملا ، فضلا عن كونه حقيقة قريبة الوقوع .

فالحاكم السياسى فى المجتمع الاسلامى المعاصر اذن سيعتمد فى حكمه على احد النظامين الرئيسيين القائمين اليوم . وليس فى اى منهما ما يوجهه الى الأخذ بالاسلام فى شئون الدولة . كما انه ليست هناك فى المجتمع هيئة مستقلة عن نفوذ الدولة تدعو الى الاسلام ، فى حرية الدعوة الى الله .

فاذا اختار الحاكم السياسى فى المجتمع الاسلامى المعاصر نظاما سياسيا يغاير هذين النظامين ، فانه لا يختار الاسلام على سبيل القطع . وانما يلفق من النظامين نظاما ثالثا ينتمى اليهما . وليس فيهما — كما ذكر — ما يشجع على الأخذ بالاسلام .

وشعار العلمانية فى هذه المجتمعات الاسلامية المعاصرة هو شعار : « ان الدين للديان ، والوطن للجميع » . والحديث فى ظلها يكثر عن « الوطن » و « التراب » ويقل كثيرا عن الله ، وما لله ، وما يجب على الحاكم والمحكومين ، وما يحدد السلوك الانسانى ، مستمدا من كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام .

***

التصور الخاطىء عن الفصل بين العلم والدين

وتأتى عقبة أخرى فى طريق تطبيق الاسلام فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة . وهى عقبة التصور الخاطىء عن الفصل بين العلم والدين فى مجال الاسلام .

فهذه القضية — قضية الفصل بين العلم والدين — قضية مستوردة ومستخلصة من موقف الكنيسة كسلطة حاكمة فى القرون الوسطى ، ازاء البحث والمعرفة ، وضرورة الرجوع اليها فى موضوع البحث . وتطور الأمر فى عصر النهضة الأوروبية ، واصبحت حرية البحث مكفولة لعلماء الطبيعة والرياضة ، دون حاجة الى الرجوع الى السلطة الكنسية . وصاحب حرية البحث فى عصر النهضة : استهجان موقف الكنيسة ازاء البحث العلمى . وتصور هذا الموقف بأنه موقف عدائى للعلم . وبذلك صارت العلاقة بين العلم والدين

ـــ وبالأحرى بين الكنيسة والعلم ـــ علاقة خصومة . وأضحت هذه العلاقة قضية أو مشكلة : طرفاها العلم القائم على التجربة فهو يقين ، والدين الذى يعود الى غيب السماء ، فهو مشكوك فيه ، أو هو خرافة وأساطير .

وتحديد الطرفين فى المشكلة على هذا النحو تحديد يعرض الدين الى الغمز أو الطعن . ولكن التجربة التى يقوم عليها العلم ان كانت اليوم يقينا فى نظر الباحثين ، فقد تصير فى الغد الى ظن يحتاج الى مراجعة ، ضرورة التطور فى التجربة ، والتطور فى الانســـان الذى يمارسها ، والتطور فى دقة الجهاز الذى يستخدم فيهـــا ، والتطور فى ظروف التجربة نفسها واتساع دائرتها . كذلك الدين الذى يعتمد على وحى السماء ان كان هذا الوحى نقلا لعلم الغيب ، فما يأتى به علم الغيب لا يعاب اطلاقا اذا كان ذا موضوعية ، ومتجردا عن الحزبية ، وعن الهوى الذى من شأنه أن يضعف على الانسان حكمه .

نعم قد يلصق الانســـان الذى ينتصب الى الدين : بالدين ما يحمل الباحث على التردد فى قبوله :

فتألية الانسان وجعله ذا شخصية أو طبيعة مزدوجة من الناسوت واللاهوت ، وبالتالى لهذا التصور فى ازدواج شخصيته ينظر اليه على أنه معصوم عن الخطأ ، تجب على الأتباع طاعته .

وكذلك جعل حكومة الكنيسة حكومة الهية .

وخلق وساطة أو شفاعة عند الله تعلو على المستوى البشرى العادى ، ودون الاله ، يتقدم اليها المذنب للاعتراف بذنبه ، وطالب الغفران عنه .. مثل هذه الضمائم ليس فى رسالة الله على الأرض لأى رسول من رسله ، ولكنه اقحام الانسان بنفسه ؛

رغبة فى اعلاء شأن الانسان ، هو الأمر الذى يبعد التجـــرد أو الموضوعية عن مبادىء الدين .

فاذا كان الدين اذن عرضة لأن تلصق به الخرافة ، فالعلم التجريبى عرضة للظن وعدم الحجية القاطعة فى مجـال اليقين . والصانع لخرافة الدين ليس علم الغيب وانما هو الانسان . وكذلك: الانسان هو الذى يبعد عن العلم التجريبى : الحجية القاطعة فى الغد ، وبعد الغد .

والآن : هل بين الاسلام والعلم خصومة ؟ . هذا كتاب الله وقرآنه يتميز اعجازه بأنه موضوعى للنـاس جميعا .. .. ووفق خصائص الطبيعة البشرية فيما يأمر أو ينهى عنه : لا يحرم زينة الحياة الدنيا ، ولكنه يدعو فقط الى عدم الاسراف فيها . ودعوة الاسلام الى الايمان به تمنع أن يكون هناك اكراه عليه ، اكراهـا نفسيا ، أو بدنيا ، أو ماديا . والله صاحب الأرزاق فى هذه الحياة للانسان لا يزيد من رزق المؤمن به بسبب ايمانه ، ولا يمنع أو يقلل من رزق المعارض لدينه بسبب كفره ومعارضته . بل قد يزيد من رزق هذا الأخير على رزق المؤمن : **« ولولا أن يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعـارج عليها يظهرون . ولبيوتهم ابوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا »**(١) .. **« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض »** (٢) .

واذا كانت « الموضوعية » جانبا من جوانب اعجـاز القرآن فاليقين ملازم لمبادئه وتوجيهاته . لأن معنى اليقين هو مطابقة العلم للواقع . هو الصدق بين الحقيقة والتعبير عنها . ولذا هنـاك ترحيب من الاسلام بيقين العلم الانسانى ، ان كان هناك يقين فيه . ولكن قلما يبقى يقين العلم الانسانى بقاء أبديا . ومن هنـا يجب أن لا يشد القرآن فى تفسيره الى ما يسمى « بنظريات العلم » فى عصر من العصور . لأن هذه المحاولة تنتهى الى اخضاع اليقين

---

(١) الزخرف : ٣٣ ــ ٣٥ .   (٢) الاسراء : ٢٠ ، ٢١ .

الأبدى فى القرآن الى ما يضفى عليه الانسان سمة اليقين عنده ، وفى واقعه قد يصير الى ظن فى وقت لاحق .

ولكن رغم وضوح الصلة بين العلم والدين فى تاريخ الكنيسة فى أوروبا .. ورغم ان الذى يضعف جانب الدين هنا فى نظر الباحث العلمى هو ما يلحقه الانســـان بالدين نفسه .. ورغم ان الاسلام كدين يرحب بيقين العلم ان كان يقينا حقا وصدقا .. رغم كل ذلك فان بعض من يسمون بالمجددين فى المجتمعات الاســـلاميه يقلدون بعض علماء الطبيعة فى أوروبا على ايام النهضة الأوروبية — وليس فى هذه الأيام فى النصف الثانى من القرن العشرين — يحاولون أن يرددوا الخصومة بين العلم والدين ، وأن يجعلوا من الاسلام دينا للقرون الوسطى لحقت به بعض الخرفات والأساطير ، وأن يطرحوا أمام الشباب المسلم فى هذه المجتمعات : صورة قاتمة للدين فى عهد ما يسمى التقدم العلمى والتكنولوجى ، مما ينفر هذا الشباب من الاقبال على الايمان حقيقة بالاسلام والالتزام به ، كدين صاحب منهج للحياة الانسانية : سياسى ، واجتماعى ، واقتصادى ، وسلوكى .

ويزيد فى تخييل صدق هذه الصورة القاتمة للاسلام التى يرسمها بعض هؤلاء المجددين أمام الشباب المسلم المعاصر : افساح كبريات الصحف اليومية ، والدوريات فى المجتمعات الاسلامية ، لنشر ما يكتب عن الاسلام من هؤلاء بصفة منتظمة ، والاغداق فى أجورهم عما يكتبون . وتكاد تكون وزارات الثقافة فى هذه المجتمعات فى عداء مع الاسلام ، دون أن تكتفى بعزلتها عنه كما يقضى توجيه العلمانية أو مبدأ الفصل بين الدين والدولة .

ومما يؤسف له أن بعض المجتمعات الاســـلامية الجديدة التى يرتكز الحكم فيها أساسيا على العامة التى تؤمن بالاسلام ، يمعن فى افساح المجال لأصحاب الخصـــومة بين العلم والدين ، كأن كثرة الحديث عن قضية الخصومة بين الطرفين هى عنوان التقدم فى هـــذا

المجتمع ، أو فى ذاك ، كما يجعل المجتمع الشيوعى التنكر للدين ظاهرة ما يسميه بالتقدمية فى فلسفة الماركسية .

نعم يجب على الشباب المسلم أن يعرف العلاقة بين العلم التجريبى والاسلام الموحى به من عند الله . ولكن على أساس الفهم السليم للاسلام ، وعلى أساس الدراسة الواعية لاتجـاه البحوث الطبيعية ، بعد عصر النهضة الأوروبية الى اليوم .

ويكاد يكون من الواضح : أن دراسة كثير من هؤلاء (١) الذين يرسمون صورة الخرافة والأساطير لمبادىء الاسلام وأصوله : لا يدرسون الاسلام من كتابه ولامن السنة الصحيحة لرسوله عليه السلام . كما لا يستوعبون اتجاه البحوث الطبيعية عند المعاصرين من علماء الطبيعـة فى أوروبا وأمريكا اليوم . فالذين استهجنوا بالأمس مـوقف الكنيسـة من البحوث العلمية قلة من علماء عصر النهضة فى انجلترا ، وفرنسا ، والمانيا . وأصبح اتجاههم الآن يروى على أنه حلقة فى تاريخ العلم التجريبى ، وليس على أنه نظرية لاتقبل النقد . وموقف علماء الطبيعة المعاصرين معروف الآن من ما يسمى « بنظرية » التطور عند « داروين » . وهو موقف الشك منها وعدم التسليم بها ، وعدها من المفترضات التى لم يقم عليها دليل . ومع ذلك يروج هذا الافتراض فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة على أنه مسلم به ، لايقبل النقد بحال أو يروج للشباب فى المدارس الثانوية .. ويروج فى الصحف اليومية،والدوريات العربية على وجه الخصوص .

ان الاسلام حقا لا يخشى مثل هذا التصور الخاطىء لمبادئه ، لأن تلك المبادىء واضحة الموضوعية والتجرد . هما آيتان على

---

(١) من أمثـال : سلامة موسى .. ولويس عوض .. وزكى نجيب محمود .. وأحمد زكى .. وغيرهم .

الصدق والتعبير عن الحقيقة ، ولكن كيف يحمل الشباب المهتز عن طريق هذا التلبيس الى قبول الايمان بالاسلام والالتزام بتطبيق مبادئه فى حياته العملية واليومية ؟ . اليس تكرار هـذا التصوير الخاطىء بصورة أو باخرى .. واليس نشره فى كبريات الصحف والمجلات من وقت لآخر ، يعطى الدليل للشاب على أنه من المسلمات به بين الحقائق العلمية ؟ .

أن طابع العصر هو « العلم » و « التكنولوجيا ». وشعاره : منهج العلم ، وليست خرافة الدين ، هو السبيل الى التقدم والتطور ، والخروج من التخلف ! ومن الأسف أن عمق هذا الشعار فى حقول الثقافة ، والفكر ، والتعليم فى مجتمعاتنا الاسلامية المعاصرة : رهيب حقا . وليست رهبته بسبب التأكيد عليه من بعض الكاتبين المجددين ، أو بسبب صدقه فى واقع أمره . وانما هذه الرهبة تعود فيما تعود اليه : الى السطحية المتفشية فى التفكير ، أو الى ما قد يسمى « بأمية المثقفين » الذين صنعهم الحكم الوطنى بعد الاستقلال فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة .

وهناك من جانب آخر فى مجتمعاتنا الاسلامية المعاصرة تصور خاطىء للعلم والتكنولوجيا . وهو المبالغة فى قيمة العلم فى ذاته ، والتكنولوجيا فى ذاتها . وكأن العلم وحده ، والتكنولوجيا وحدها كافية فى توصيل المجتمع البشرى الى ما يسمى بالتقدم الحضارى ، اذا ما نقل العلم أو استخدمت التكنولوجيا ، دون حاجة الى أن يكون الانسان الذى يستخدمها : انسان بناء ، لا انسان هدم .

وفى المبالغة فى قيمة العلم والتكنولوجيا خداع . لأنهما ليستا الا وسيلتين من وسائل الانسان فى صنع التقدم الحضارى المادى . فاذا لم يستطع الانسان أن يستخدمهما ، أو أساء استخدامهما ، فانهما لا يكونان من وسائل التقدم ، بل من مصادر الشرور فى المجتمع .

بعض المجتمعات الاسلامية المعاصرة عرفت منذ زمن طويل العلم فى علاج بعض الأمراض المتوطنة كالبلهارسيا مثلا . ولكنها

لم تستطع القضاء عليها . وعرفت العلم كذلك فى علاج بعض الأمراض التى تصيب بعض المحاصيل الزراعية الرئيسية. وأيضا مع ذلك لم تستطع التخلص منها .

وكثير من مجتمعاتنا عرف التكنولوجيا فى السيارة ، وفى جهاز الراديو ، وفى جهاز التليفزيون . ومع ذلك يسيىء استخدامها ، أفرادا وحكومات . بحيث تصبح أضرار سوء استخدامها واضحة : على الصحة النفسية ، وعلى العلاقات الانسانية ، وعلى القيمة البشرية فى هذه المجتمعات .

وهنا لابد من الانسان قبل استخدام العلم والتكنولوجيا . لابد من الانسان الذى يدرك حقوقه وواجباته ، لا كما يصنعها : « ميثاق شرف » للمهنة ، كما يقال . وانما على نحو ما انزلها الله فى كتابه . ولكن كيف نطبق ما لله ، مع تأكيد قيمة العلم وحده فى مواجهة دين الله ؟ ومع التوجه اليه بالعبادة ، دون خالق الانسان ؟ .

***

سخرية الاعلام بما يتصل بالدين

(أ) لماذا السخرية باللغة العربية الفصحى — وهى لغة القرآن — فى وسائل الاعلام المسموعة والمرئية ، والمعروضة ، والمقروءة ؟

(ب) لماذا التهكم من بعض المظاهر التى تتصل بالعادات الاسلامية فى مجتمعاتنا المعاصرة ؟ . كما يتهكم من شخصية المأذون ويستخف به ، ويجعل منه مثل للضحك والاستغراق فيه ؟

(جـ) لماذا يصر المخرجون ، والمنتجون ، وكتاب الرواية فى الأفلام السينمائية فى المجتمعات الاسلامية ، على أن يكون بيت الأسرة المسلمة الراقية هو الذى أعد فيه

« البار » لتناول الخمور ، كما أعد فيه مكان للرقص واحتكاك الأجسام العارية فى الحفلات التى تقام فيه ؟ .

أليس ذلك وأمثاله من شأنه أن يصور فى ذهن الفتى والفتاة ، والمراهق والمراهقة من شباب الأمة الاسلامية : أن النطق باللغة الفصحى .. وأن رجل الدين .. وأن تحريم الخمر ، والاختلاط بالعاريات الكاسيات فى حلبة الرقص من صور التخلف الماضى ، وانه على العكس : النطق باللهجة العامية أو بلغة أجنبيـــة غير العربية ، وأن الشرب والسكر ، والابتذال فى الخلاعة عند تلاقى الأبدان الكاسية العارية ، من سمات الحضارة ؟ .

كيف يطبق الاسلام على هذه الأرض ؟ . بالقانون ؟ . متى كان القانون وحده كافيا ، قبل أن يمهد له بتربية النفوس وجعلها تقبل على تنفيذه بارادة قوية أو بايمان لا يقبل التردد ؟ . ان التشريع وحده لا يكفى ، وان القـــانون شكل لا مضمون له اذا لم يصادفه الرضا ، عند من يطلب منهم التنفيذ .

***

المرأة فى الأسرة المسلمة المعاصرة

ومن الأمور الخطيرة حقا فى سبيل تطبيق الشريعة فى مجتمعاتنا الاسلامية المعاصرة : استمرار تقليد المرأة فى الأسرة المسلمة لمظاهر ما يسمى « بتحرير المـــرأة » فى مجتمعـــات الشيخوخة فى البـــلاد الاوروبية ، أو فى المجتمعات العمالية فى بلاد الكتلة الشيوعية . اذ هذه المجتمعات أو تلك تعيش فى مرحلة انفكاك الأسرة التى لم يعد للوالدين فيها كلمة توجيه . ولذا تنتشر اليوم « الفوضى » بين شباب المجتمعات الغربية ، بينما المجتمعات الشرقية أو الشيوعية تعيش فى ظل تقطيع الروابط بين الأفراد فى المجتمعات . وفى المقدمة روابط الأسرة . اذ الأيدويولوجية الماركسية تنظر الى الافراد كقطيع ، وليس على أساس أنهم أعضاء فى أسر ، يكونون مجتمعا بشريا .

ولولا بقية من حضارة مادية قوية . ولولا بقية من بناء بشرى كان شامخا وكان قويا فى المجتمعات الغربية ولولا صلابة الكنيسة الكاثوليكية لعجلت شيخوخة هذه المجتمعات فى فنائها .

ان المجتمع الاسكندافى يتقدم شيخوخة هذه المجتمعات الغربية. والمرأة هناك لا تفتأ تطالب لنفسها فقط بما يسمى بالمساواة بالرجل فى الأجر على العمل ، والمشاركة فى نفقات المنزل ، والحرية فى مساكنة الرجل ومباشرته ، اى رجل . وانما تطالب الآن بالغاء عقد الزوجية لأنه يحد من حرية المرأة . وقد نجحت فى مخالفة الكنيسة ، فى شأن الزنا ، واصبح الآن ينظر اليه من الوجهة القانونية على أنه فى نطاق الحرية الشخصية للمرأة .

وليس هناك فرق بين طفل شرعى وآخر غير شرعى فى رعاية الدولة . وليس هناك مانع من انجاب الزوجة لزوج عقيم ، لولد بالتلقيح الصناعى، أو بالمعاشرة الجنسية من رجل معروف للزوج ..

ان المرأة فى الأسرة المسلمة اذ تلهث وراء السعى الى تقليد المرأة الغربية فى هذه المظاهرة التحررية تسىء الى أبنائها وشباب مجتمعاتنا الاسلامية اساءة مزدوجة :

أولا : ان وضع المجتمعات الاسلامية المعاصرة هو وضع الخروج من تخلف استمر وقتا طويلا تحت وطأة قبول الاستعمار .. وهو تخلف فى الاعداد للحياة .. وتخلف فى الروابط الاجتماعية . وتخلف فى الجانب النفسى . اذ لم تزل تسير فى تبعية الفكر الأجنبى مهما كانت تفاهته ، دون تحقيق الاستقلال الذاتى لها . والمجتمعات التى تسعى للنهوض فى حاجة الى التماسك من أجل البناء ، والصبر وتحمل الصعاب فى سبيل الانتقال من مرحلة الى أخرى فى مراحل التطور . وشيوع الميوعة والانفكاك فى الأسرة لا يساعد اطلاقا على السير ولو بطيئا فى طريق التحول . . . .

ثانيا : ان تطلع المرأة فى الأسرة المسلمة الى المرأة الغربية كنموذج للمرأة التى تخلصت من مخلفات الماضى ، وخطت خطوات

طولية فى سبيل التحرر ، والحرية كما يدعى .. هذا التطلع يحول بينها وبين أن تأخذ بتعاليم الاسلام فى تربية النشء ، والشباب الذى سيكون امتدادا لهذه المجتمعات الاسلامية المعاصرة . اذ سترى فى العبادات الاسلامية ، وبالأخص فى عبادتى : الصلاة ، والصوم ، صورة من الماضى الذى تصورته خطأ على أنه مصدر التخلف والاسترقاق بها والذى جعلها تئن — كما يقال — تحت وطأة حق الطلاق للرجل وحده ، ورخصه تعدد الزوجات ، والمشاركة فى الميراث بنصف ما للرجل . بينما أن العبادات الثلاث فى الاسلام : وهى الصلاة ، والصوم ، والزكاة : تعتبر الركيزة الأولى لبناء الانسان كانسان فى الخشية من الله ، وفى المسئولية ،وفى تحمل مشاق الحياة ،وفى الروابط والعلاقات بين الأفراد ، وفى النظرة السليمة للمال ، وللقوة : المال كوسيلة وليس غاية . والقوة كأداة لرد الاعتداء ، وليس للظلم والطغيان . واكثر حاجة يستعين بها المجتمع — أى مجتمع — فى بناء نفسه وفى نهضته هى توجيه أفراده نحو أداء واجباتهم قبل الحصول على حقوقهم . والمواظبة على أداء العبادات فى الاسلام خير وسيلة لأداء الواجبات ، وقد سمى القرآن الكريم هذه الواجبات : أمانات عندما يقول الله : ((**ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها**)) (١). اذ المجتمع الاسلامى مجتمع واجبات . فاذا أديت هذه الواجبات أصبحت حقوقا لمن تؤدى اليهم .

وهكذا : المرأة فى الأسرة المسلمة المعاصرة بتصورها الخاطىء عن الاسلام تشكل عقبة فى تطبيق الاسلام ليس من السهل أن تذلل الا عن طريق التنشئة والتربية الواعية فى فترات من الوقت ، قد تستغرق جيلا أو جيلين . ***

---

(١) النساء : ٥٨ .

واذا كانت تقع على الاستعمار : تبعة تلخلخل القيم الاسلامية فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، وتقع على هذه المجتمعات : تبعة قبول الاستعمار الفكرى فى أجيال متلاحقة فيها ، فانه يقع على الحكم الوطنى بعد ما يسمى باستقلال هذه المجتمعات : تبعه الارهاب الذى تلاحق به سلطات كثيرة فى هذه المجتمعات : الرأى الاسلامى المعارض فى مواجهة سياسة الدولة وهو ارهاب يبطش بالحركات الاسلامية بطشــا لا انسانية فيــه ، وبعيدا كل البعد عن الايمان بالله وحكم القرآن فيــه .

وهذا الارهاب فضلا عن عنفه فانه يترك انطباعا خاطئا عن الاسلام فى نفوس شباب الأمة الاسلامية ، ويضعه موضع الاتهام عن طريق وسائل الاعلام المختلفة التى تملكها الدولة فى أى مجتمع اسلامى معاصر ، حتى لقد يخيل للمتأثر بحملة هذه الوسائل : أن الاسلام مصدر فتنة فى المجتمع ، أو على الأقل : هو مصدر قلق واضطراب بين أفراده . ولذا يجب تجنب الاتصال به .

وبينما الدولة فى هذه المجتمعات الاسلامية المعاصرة تتسامح مع منظمات أخرى(١) تعيش فيها وتسعى لتوهين القيم الاسلامية لتفسح فى هــذه المجتمعات مجالا لأيدولوجيات دخيلة لتفتيت الترابط فى المجتمع ، أو لتمكين نفوذ أجنبى فيه ، فانها لا تتســامح مع الرأى الاسلامى المعارض ، رغم أن الاسلام قد يكون دين الأكثرية على الأقل ، وربما لأنه دين الأكثرية كانت خشية الحاكم أشد ، من الرأى الذى ينسب الى الاسلام ، اذا كان لا ينسجم مع سياسة الدولة .

والرقابة المتعددة التى تفرضــها الدولة فى بعض المجتمعــات .

---

(١) كالمنظمات الشيوعية .. والروتارى .. والماسونية ... والتبشير الصليبى .

الاسلامية المعاصرة ، على نشر الكتاب الاسلامى،وعلى دخوله أو على تصديره الى الخارج ، أو على خطبة الجمعة فى مساجد الله تعطى الأمارة الواضحة على الحذر الشديد من جانب السلطة الحاكمة من الرأى باسم الاسلام .

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية والمسلمون يعيشون مع الاسلام فى كثير من مجتمعاتهم المعاصرة بين مد مؤقت ، وجزر قلما ينقطع الا فى ظاهر الأمر . ولو أن الأمر كان العكس ، وكان المد للاسلام فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة مستمرا لأمكن أن يقال : ان الطريق معبد لتطبيق الاسلام . فهيا الى صياغة الفقه الاسلامى فى صورة قوانين اسلامية للتنفيذ .

***

الصليبية .. الجديدة

اذا عرف عن الصليبية التاريخية : أنها كانت تكتلا أوروبيا يستظل بمظلة الدين ، وتباركه الكنيسة للاستيلاء على بيت المقدس ، وطرد المسلمين من منطقة الشرق الأدنى ، باعتبار أنهم يمثلون قوة الشر او الكفر فى عالم الامس ، فان الصليبية الجديدة منذ الحرب العالمية الثانية تكتل بين الشرق والغرب ، تباركه هذه القوة العظمى، أو تلك ، أو كلتاهما : لطرد الاسلام من مناطق الايمان به ، فى أفريقيا وآسيا . اذ مع وجود الاسلام على أرض المسلمين فى هاتين القارتين لا تبقى قوة عظمى لها نفوذ تمارسه فى توجيه المسلمين هنا ، اقتصاديا ، أو اجتماعيا ، أو استراتيجيا .

وللوقوف على أهمية مناطق الايمان بالاسلام فى أفريقا وآسيا فى مجال التنافس بين القوتين العظميين اللتين وجدتا بعد الحرب العالمية الثانية ، تكفى النظرة الى مصادر البترول فى هاتين القارتين، وأثر البترول فى الصناعة الغربية والشرقية على السواء . فقد وهبت أرض المسلمين من اندونيسيا فى آسيا .. الى نيجيريا والجزائر

فى افريقيا ، مرورا بالخليج الفارسى وشبه الجزيرة العربية ، بأكثر من ثلثى مصادر هذه الطاقة . بالاضافة الى المواد الخام الأخرى ذات الأهمية الكبرى فى عالم اليوم ، من معادن أخرى وثروة زراعية ، وحيوانية .

والدولتان الكبريان بعد الحرب الأخيرة . وجدتا لتعيشا ، ولتتنافسا وليبقى لهما نفوذهما فى عالم ما بعد تلك الحرب . واذا كان مجال تنافسهما واضحا : فى السياسة ، والاقتصاد ، والتطور الصناعى ، والعلاقات الاجتماعية ، فان مجال اتفاقهما واضح أيضا فى ابعاد الاسلام عن أرض المسلمين أو اضعافه على الأقل الى الحد الذي يسمح بأن يكون ما بين أيدى المسلمين من ثروات ضخمة ، وما لهم من طاقات بشرية كبيرة ، وما لأوطانهم من أهمية استراتيجية عالمية ، خاضعا لنفوذ هذه الدولة أو تلك .

وقد دخلت احدى هاتين القوتين العظميين مجال النفوذ فى كثير من المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، عن طريق بيع السلاح القديم والخبرة فى التدريب عليه ، وفى اقامة بعض المصانع فيهما التى تكاد تكون مستهلكة لديها ، بينما دخلت الدولة الأخرى مجال النفوذ فى كثير من هذه المجتمعات أيضا ، عن طريق بيع فائض القمح والمحصولات الزراعية الأخرى لأجل طويل المدى ، وبفائدة ضئيلة اذا قيست بمعدل الفائدة البنكية على المستوى العالمى . ويكاد لا يكون هناك مجتمع اسلامى معاصر الا وله مشاكل جغرافية مع جيرانه ، تدفعه فى كثير من الأحيان الى الخصومة أو القتال ، أو له حاجة الى القمح والطعام ، أو الى السلاح والقمح معا .

وحرص هاتين القوتين العظميين ، على اضعاف الاسلام أو مطاردته فى أرض المسلمين قد يسلك طريقا غير مكشوف للملايين من المسلمين . ولكنه يكاد يكون وراء كل حركة يباشرها الحاكم الوطنى فى أى من هذه المجتمعات الاسلامية ، تمعن فى الكبت والاضطهاد لأية حركة اسلامية عندما تبدو قوتها .

فوراء ذبح المسلمين بالمئـــات والآلاف فى « زنزبار » .. ووراء قتل العلماء وائمة المسلمين فى عدن ، ومقديشيو .. ووراء اضطهاد الجمـــاعات الاســـلامية فى البلاد العربية التى اضطهدت فيهـــا المجموعات الاسلامية .. ووراء ضم ارتيريا الى الحبشة على عهد الامبراطور .. ووراء فصل باكستان الشرقية عن شقيقتها باكستان الغربية فى حرب الهند ضد باكستان المسلمة .. ووراء مســـاعدة الحبشة اليوم ضد الصومال وضد أرتيريا .. ووراء كل واحدة من هذه الأحداث قوة كبرى صاحبة نفوذ اما عن طريق بيع السلاح ، أو بيع فائض القمح .

ونفوذ الدولة الكبرى اذا مارسته فى أى مجتمع من المجتمعات الاسلامية المعاصرة لا يعبأ اطلاقا بما يخلفه من اثر على شـــعور المسلمين . فأمريكا كانت وراء قرار هيئة الأمم المتحدة بضم أرتيريا الى الحبشة . والصين كانت وراء مذابح المســلمين فى زنزبار . والسوفييت كانوا وراء قتل العلماء المسلمين فى عدن ومقديشيو ، ووراء هزيمة باكستان فى حرب الهند فى سنة ١٩٧٠ ضد باكستان ، مستعينين بمطار أسوان فى نقل المعدات العسكرية الى الهند ، ووراء حرب الحبشة ضد الصومال وأرتيريا اليوم ، مستعينين بنقطة ارتكاز فى بنى غازى ينقلون منها عبر الصحراء : المعدات العسكرية الى اديس ابابا .

ويوم أن نشرت مجلة الأزهر فى عام ١٩٥٨ مقـــالا لى عن التبشير كان فى مقدمة احتجاج السفارات لدى وزير الدولة لشئون الأزهر آنذاك : احتجاج سفارة احدى هاتين القوتين العظميين . وسبقت هذه السفارة باحتجاجها ، مقر الرسول البابوى بمصر .

وكتاب الفكر الاسلامى الحديث وصـــلته بالاستعمار الغربى ، تعرض للمساومة من هذه القوة العظمى مرة على حذف ما كتب فيه عن المستشرقين ، وللمســـاومة القوة العظمى الأخرى مرة أخرى لحذف ما كتب فيه عن الشيوعية .

واذا كانت هاتان القوتان العظميان تضيق بكتاب عن الفكر لاسلامى الحديث الى هذا الحد ، لما فيه من صراحة الحق الاسلامى ، ومن تلبيس ضده باسم العلم والمنهج والتقدمية ، من الصليبية العالمية والشيوعية الدولية : فانهما لا شك لا ترضيان عن حركة اسلامية واعية تظهر فى اى مجتمع من المجتمعات الاسلامية المعاصرة .

ونفوذ هاتين القوتين فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة يعد من العقبات القوية التى ستقف فى الخفاء وراء تطبيق الاسلام ، عندما يجد الجد ويصبح التطبيق قريب الوقوع .

***

الدعوة .. والحكم فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة

أولا : لا يطالب الاسلام أن تكون فى أمته ، أو فى مجتمعات هذه الأمة : حكومة أو حكومات الهية ، على نمط الحكومة الكنسية المقدسة ، والتى تجب لها العصمة فى اعتقاد التابعين . لأن الاسلام لا يعرف مثل هذه الحكومة . وانما يعرف لونا واحدا من الحكومات . هو الحكومة البشرية التى تحكم بما أنزل الله ، وتصيب وتخطىء فى التطبيق . ولكنها لا تقصد الى الخطأ ، كما لا تصر عليه ان عرفته . والحكومة الاسلامية اذن هى حكومة انسانية تعمل بكتاب الله والسنة الصحيحة لرسوله عليه الصلاة والسلام .

والقرآن الكريم اذ يسجل العتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالته ، فانه يسجلها عليهم باعتبار أنهم يطبقون رسالة الله بين المسلمين : فى الحكم ، وفى تقدير المواقف والظروف التى يعيشون فيها . فيقول القرآن مثلا فى سورة الأنفال : **((ما كان للنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله**

سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)) (١) .. ويقول كذلك فى سورة الاسراء : ((ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا . اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا)) (٢) .. وبتسجيل القرآن فى عهد الرسالة لمثل هذا العقاب ، يستهدف كذلك : اعـــلان : أن حكم الانسان فى أى وقت لا يرتفع فوق الخطأ ، ولا تكون له العصمة بحال من الأحوال . ومن هنا كانت هذه القاعدة الفقهية : اجتهاد المجتهد لا يلزم الا نفسه . ومن اجتهد واصاب فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد .

واذا كان الاسلام لا يعرف الحكومة الالهيـــة بالمعنى الكنسى فالذين يعترضون على الحـــكم بالاسلام فى المجتمعات المعاصرة اليوم بأنه حكم طائفـــة معينة ، هم من يسمونهم برجال الدين أو المشايخ ، أى بأنه حكم ثيوقراطى ، وليس حكما ديمقراطيـــا .. هؤلاء يقيسون الاســـلام على صنع الكنيسة ، وينسون أن الحكم بالاســـلام : حكم انســـانى يعتمد فقط على رسالته التى نزلت به ، وانه كذلك حـــكم يقوم على الشورى فى التطبيق ، على نحو ما جاء فى صفات المؤمنين فى قول الله تعالى : ((وأمرهم شورى بينهم)) (٣) . فجعل تداول الأمر بين المؤمنين من صفاتهم الواقعية ، التى تكون ركنا فى اتصافهم بالايمان .

ثانيا : أن العمل بكتـــاب الله ، والنهج وفق سنة الرســـول عليه السلام ، عملا وقولا : دستور كل فرد ، وكل أسرة ، وكل مجتمع فى الأمة الاسلامية . فالفرد ـــ فى نظرة الاسلام ـــ

---

(١) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ . (٢) الاسراء : ٧٤ ، ٧٥ .
(٣) الشورى : ٣٨ .

هو الأصل والأساس ، وعليه مسئوليته الخاصة : نحو نفسه أو نحو غيره فى المجتمع والأمة : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

وعمل الفرد بكتاب الله ، وسنة رسوله ناشىء عن التزام نفسى ، ينبثق عن ايمانه بالله وحده . فليس هناك اكراه ، ولا الزام بالعمل بالقرآن قبل الايمان به .

ثالثا : أن الدعوة الى الله هى طريق الايمان به . والرسول عليه السلام كان مبلغا للوحي للناس جميعا ، كما كان داعيا الى الله بقدوته الحسنة . فكان قوله تبليغا للوحى : **« وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى »** (١) .. وكانت دعوته الى رسالة الله قدوة حسنة وتعبيرا صادقا عن الحق : **« لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا »** (٢) .

رابعا: أن الرسول عليه السلام كان اماما للمؤمنين فى الصلاة ، كما كان حاكما يفصل ويقضى فى شئونهم ، كما كان داعيا الى الله والعمل بكتابه ، وداعيا كذلك الى التأسى بالسنة العملية له ، وهى قدوته الطيبة . ولم يعرف عهده عليه السلام ولا عهد خلفائه الراشدين رضى الله عنهم : الفصل بين الحكم .. والدعوة .

.. ولا يقال ان الجمع بين الحكم والدعوة كان وقفا على الرسول عليه السلام ، أو كان ممكنا اذ ذاك عندما كان مجتمع المؤمنين صغيرا . لا يقال ذلك : لأن المراد بدعوة

(١) النجم : ٣ ، ٤ . (٢) الأحزاب : ٢١ .

الحاكم الى الله هى قدوته الحسنة فى تطبيق كتاب الله . اذ ذلك هو المأخوذ من دعوة الرسول عليه السلام . فهو اذا كان يقول يبلغ وحيا عن الله ، واذا كان يدعو : يطبق وحى الله ، وكلمته فى قرآنه . فالاضافة الواضحة من سنة الرسول عليه السلام الى كتاب الله ، هى التطبيق والقدوة الحسنة . وهنا اذا كانت السنة القولية شارحة لبعض ما فى كتاب الله ، فالسنة العملية هى النموذج المعتد به عند الله لتطبيق رسالته . ولذا يطلب الله جل شأنه من المؤمنين : التأسى بعمل الرسول عليه السلام . والطاعة التى أوجبها القرآن الكريم لأولى الأمر فى قول الله تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولي الأمر منكم**))(١) .. بعد كتاب الله ، وسنة رسوله عليه السلام : أوجبها لهم باعتبار أنهم دعاة لله بتطبيقهم رسالة الله وبقدوتهم الحسنة فى هذا التطبيق . ولذا جاء الطلب بطاعتهم أثر قوله تعالى : ((**أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلوها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**)) (٢) .. واداء الأمانات أمر عملى تطبيقى .. وكذلك الحكم بين الناس أمر عملى تطبيقى .

والفصل بين الحكم والدعوة فى المجتمعات الاسلامية التى توالت فى تاريخ المسلمين ، وبالأخص فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، يعتبر بدعة أو يعتبر نشازا فى طبيعة الأشياء . فقد صور هذا الفصل للناس : أن هناك فى الاسلام : رجال دولة .. ورجال دين . وقد استباح كثير من رجال الدولة لأنفسهم : أن يخرجوا عن القدوة الحسنة فى تطبيق رسالة الله .

---

(١) النساء : ٥٩ .   (٢) النساء : ٥٨ .

بل ربما فى بعض المجتمعات الاسلامية المعاصرة يستبيح بعض رجال الدولة لأنفسهم : أن يتدخلوا بالتعديل فى كتاب الله فيما يتصل بالمرأة ، فى ميراثها ، وزواجها ، وطلاقها أو فيما يتصل بالعبادات فى ايقاف بعضها كما احجم كثير من رجال الدين عن ابداء رأى الاسلام فى سياسة الدولة . فان تقدم بعضهم بالرأى فيهـا فلتطويع الاسـلام لهوى الحاكم . والسياسة فى المجتمع الاسلامى المعاصر هى ما يراه الحاكم ، وليس تلك التى يراها الاسلام .

وتحققت عن طريق هذا الفصل فى تاريخ الاسلام : تلك الحكمة الكنسية : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » . والاسلام ينكر تلك الحكمة . لأنه يراها تعبيرا عن الشرك بالله ، فالله وحده هو الذى يجب الايمان به كخالق ، ومدبر للكون كله . والايمان بوحدة الألوهية هو المركز الذى يدور حوله الوحى المكى كله فى القرآن الكريم .

وكتاب : « الاسـلام وأصول الحـكم » للشيخ على عبد الرازق : استهدف — فى المقام الأول — ترويج : فكرة المستشرقين فى « الفصـل » بين الحـكم .. والدعوة ، فى الاسلام ، والعمل على انقسـام المسلمين الى طبقتين لا تتدخل احداهمـا فى شئون الأخرى . وهمـا : طبقـة العلماء .. وطبقة الحكام وأولى الأمر . ومهمة العلمـاء فى نظرهم مهمة اخلاقية كما يقولون ، بينما مهمة الحكام وأولى الأمر فى نظرهم أيضـا : مهمة سياسية . وكان تشـديد المستشرقين فيما كتبوا : على عدم تدخل الاسلام فى سياسة الدولة . والأخلاق والسياسة فى نظرهم كذلك : أمران قد لا يتلاقيان .

ولا شك انه بممارسة الفصل بين الحكم .. والدعوة ،

فى اى مجتمع اسلامى معاصر توجد عقبة كبرى فى سبيل تطبيق الاسلام فى واقع هذا المجتمع . اذ كيف يكون أولوا الأمر سياسيين ، غير ملتزمين بالقـدوة الحسنة التى تمثل الدعوة لرسـالة الله فى التنفيذ والحـكم ، ومع ذلك يكون الطريق ممبدا لتطبيق الاسلام ؟ .

انه لا يكفى أن يصدر قانون أو عدة قوانين فى مجتمع اسلامى معاصر ، تطلب تطبيق الشريعة الاسلامية ، وأولوا الأمر وأصحاب الحكم فيه ليسوا على مستوى القدوة والريادة الحسنة ، ثم لا يرون فى انفسهم ان يجمعوا مع الحكم : الدعوة لرسالة الله . بل على العكس قد يرون : أنهم رجال سياسة وليسوا رجال دعوة ، وأن المسجد اذا كان مكان الدعوة ، فالحكم مجال السياسة . كما يرون : أن الطلب منهم أن يجمعوا بين الحـكم والدعوة ، رجوع الى عهـود التخلف ! . ومع ذلك يشاهدوو اليوم بأنفسهم : كيف أن الملتزمين فى الحزب الشيوعى فى أى مجتمع شيوعى معـاصر هم أصحاب القيـادة فى التنفيذ . أى هم اولوا الأمر فى مجتمعهم . وهم يجمعون بين الحكم والدعوة الى الشيوعية . ودعوتهم الى الشيوعية تتجسد فى القدوة والتطبيق أولا . والمجتمعات الاسلامية المعاصرة التى تأخذ بنظام الاشتراكية المـاركسية تنقل هذا الأسـلوب فيها عن ائمة الشيوعية العالمية .. وكذلك نظام الاحزاب فيمـا يسمى بالمجتمعات الديمقراطية يضع القيادات السياسية فى الحزب فى المراكز الحساسة فى السلطة التنفيذية . ومع ذلك لا يعاب أسلوب العمل فى هذا النظام .. أو ذاك .

لست من المتشائمين فى تطبيق الاسلام فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة : غدا .. أو بعد غد .. وكذلك لست كثير التفاؤل من

اجل الغد القريب . ان رسالة الله لا تفنى أبداً ، كما أن مصدر الشر والتحدى لهذه الرسالة قائم الى يوم البعث : **« قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم اجمعين . الا عبادك منهم المخلصين »** (١) . وعدم فناء الرسالة يعطى الأمل فى أن تسود هذه الرسالة يوما من الأيام فى أمة المسلمين من جديد .

وقصدت فحسب أن أوضح فى اجمال : كيف أن واقع مجتمعاتنا الاسلامية المعاصرة ملىء بالأشواك والعقبات . ولذا فالصبر ، والتريث فى الخطوات ، وأخذ الأمر بمنهج غير حماسى ، كل ذلك مطلوب فى ازالة هذه العقبات ، أو اضعافها على الأقل . ويجب أن يكون رائدنا الاخلاص لله وحده فى الدعوة الى رسالته : **« قل ما أسألكم عليه من اجر ، وما انا من المتكلفين . ان هو الا ذكر للعالمين »** (٢) .

***

---

(١) سورة ص : ٧٩ ، ٨٣ .
(٢) سورة ص : ٨٦ ، ٨٧ .

محتويات الكتاب

الصفحة

رقم الايـداع ٤١٧٤ / ٨١

الترقيم الدولى ٤ – ٣٣ – ٧٣٣٥ – ٩٧٧